وحدة القصيدة بين الحاتمي (ت٣٨٨هـ) والقرطاجني (ت٦٨٤هـ)

لم يكن مفهوم القصيدة بتوصيفه البنائي والفني جديدا على النقد العربي في القرن الرابع الهجري، فقد سبق النقاد واهل العلم بالشعر كما يعرفون الى بحث مفهوم القصيدة مصطلحا ومفهوما، يكفي ان نعود الى عبارة مشهورة لابن سلام: ولم يكن لأوائل العرب الا الابيات يقولها الرجل في حادثة، وانما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن مناف)/ الطبقات ١٧/١، وهي كما يقول د. يوسف حسين بكار نتف عند اللغويين واصحاب المعجمات، ويذكر سبب تسميتها بان الشاعر قصد واعتمد ، او لأن قائله اختار اللفظ الجيد والمعنى الحسن، واما ابن رشيق القيرواني فيرى ان اشتقاق القصيدة مأخوذ من (قصدت الى الشيء) فهي تحمل معنى القصد في كل الاحوال. وقد يكون هناك معيار عددي لتسمية القصيدة بهذا المصطلح، فيرى الاخفش ان القصيدة ما كانت على ثلاثة ابيات، وخالفه ابن جني بانها ما جاوز ال ١٥ بيتا، في رأى الفراء انها التي تبلغ ٢٠ بيتا فأكثر، ويثبت ابن رشيق نفسه انها تقع في سبعة ابيات فأكثر.العمدة:١,١٨٩

ويستنتج د. احمد مطلوب انهم اختلفوا في مسالة الطول للقصائد وان لكليهما اي القصائد الطوال والمقاطع حاجة ومواضع مخصوصة يحددها الموقف ، مستندا الى ما نقله ابن رشيق في العمدة في باب القطع والطول عن ابي عمرو بن العلاء حين سئل: هل كانت العرب تطيل؟ فأجاب: نعم ليسمع منها، قيل وهل كانت توجز؟ فقال: نعم ليحفظ عنها، وكذلك رأي الخليل بن احمد الفراهيدي بان الكلام يطول ليفهم ويوجز ليحفظ، وتستحب الاطالة عنده في مواقف الاعذار والانذار والترهيب والترغيب واصلاح الامور بين القبائل ، على نحو ما فعل زهير بن ابي سلمى، والحارث بن حلزة، والا فالقطع افضل في بعض المواضع وللطوال مواقف مشهورة قيلت فيها.

ويضيف احمد مطلوب ان الشعر لا يقاس بمقياس الطول والقصر لان القصيدة ثمرة تجربة يمر بها الشاعر والانفعال الذي يمده بالطاقة والقدرة على التعبير، ويرى ان القصيدة اذا التحمت ابياتها واتحدت صورها ومعانيها كان اروع، بل ان القدماء انفسهم اشاروا الى ان الابيات القليلة تكون اكثر تأثيرا في الاسماع لما فيها من ترابط واختصار./دراسات في الادب والنقد: ٤٩٠.

وأيا كان الامر فقد طال مفهوم القصيدة تطور واضح بين النقاد العرب القدماء، لكن المهم ان تتناول موضوعا مهما يتعلق بمسألة كون القصيدة العربية نص متعدد الموضوعات، اقتضى ذلك بحث مسألة وحدة القصيدة التي تناولها القدماء والمحدثون وكانت مدار جدل نفذ منه البعض الى اتهام الرواة العرب القدماء بعدم الامانة في نقلها ، وان ما بين ايدينا من قصائد طويلة هي نتاج حتمي لدمج قصائد قصيرة جمعها الوزن والقافية، وفسروا بذلك الصيغة البنائية للقصيدة العربية المتعددة الموضوعات.

وبالنسبة الى الحاتمي فقد تناول هذا الموضوع في كتابه حلية المحاضرة بالقول: "من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه ان يكون ممتزجا بما بعده من مدح، او ذم او غيرهما غير منفصل منه، فان القصيدة مثلها مثل خلق الانسان، في اتصال بعض اعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر او باينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه، وتعفي معالم جماله ووحدت حذاق الشعراء وارباب الصناعة من المحدثين محترسين من مثل هذه الحال احتراسا يجنبهم شوائب النقصان ، ،ويقف بهم على محجة الاحسان حتى يقع الاتصال ،ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها واعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة، والخطبة الموجزة، لا ينفصل جزء منها عن جزء ..وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف افكارهم واعتمادهم البديع وافانينه في اشعارهم وكانه مذهب سهلوا حزنه، ونهجو رسمه، فأما الفحول الاوائل ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين فمذهبهم المتعالم فيه – عد عن كذا الى كذا- وقصارى كل واحد منهم وصف ناقته بالعتق والكرم والنجابة والنجاء، وانه امتطاها فادّرع عليها جلباب الليل، وربما اتفق لاحدهم معنى لطيف يتخلص به، الى غرض لم يتعمده الا ان طبعه السليم وصراطه في الشعر المستقيم، نصبا منارة واوقد باليفاع ناره، " / الحلية: ١٦٣.

ويمكن ان نستشف بعض الامور من نص الحاتمي اعلاه، منها:

- ان تأثير الفلسفة كان حاضرا في تقريب مفهوم وحدة القصيدة الى الافهام ، حيث مال النقد عموما في هذا العصر الى التجسيم والتمثيل تأثرا باليونانيين وفي مقدمته ارسطو، فهنا جعل القصيدة كالجسم الواحد المتصل الاعضاء الذي يسند بعضه بعضا، ومرت بنا هذه الافكار عند قدمة بن جعفر في تعريفه للشعر في كتابه نقد الشعر وكذلك سنجدها في عمدة ابن رشيق القيرواني ايضا.
- ان الحاتمي ينتصر للمحدثين بإضافاتهم القيمة للقصيدة، فبعد ان اكد صنعة القدماء التي اكدت وحدة القصيدة يعود ليؤكد التزام المحدثين بها واضافتهم القيمة لها، وانه خلط فكرته عن وحدة القصيدة بقضية شغلت النقاد في عصره وهي قضية القديم والمحدث، فكأنه يرى ان القدماء اسسوا القواعد على وفق ما تهيأ لهم وكان تصرفهم بالمعاني محدودا بالصور التي تداولوها في اشعارهم ، وعدت قواعد التزموا به ، ولا عيب في ذلك، ومن تلك القواعد طريقتهم في التخلص والمرور الى المقطع اللاحق في القصيدة بكلمات(عد او دع وغيرهما)، في حين حافظ المحدثون على هذه الاساليب واضافوا اليها افانينا من مذهبهم البديعي.
- ربط نظرته للفن الشعري ووحدة القصيدة وتحققها مع سمة وحدة الافكار والبناء في النص النثري، فجعل ذروة الاحسان والاجادة ان يكون تكامل عناصر القصيدة مثل الرسالة البليغة والخطبة الموجزة، واختار الايجاز في الخطبة كونه مذهب خطب العصر ومدار التفوق فيها.

ويرى د. يوسف حسين بكار ان الحاتمي بهذا النص الوحيد الذي تناول وحدة القصيدة عنده لم يكن يتحدث عن وحدة القصيدة بل تحدث عن وصل اجزاء القصيدة ببعضها وصلا يجعلها متناسبة ، وانتقد من قال ان مفهوم وحدة الاغراض واتصال اجزاء القصيدة لا يخالف مذهب المعاصرين، وادعاء البعض من النقاد العرب المحدثين ان العرب قد فطنوا الى مفهوم الوحدة العضوية مستشهدا بقول الحاتمي السابق واختلاف المفهوم الذي طرحه عن الوحدة العضوية.:/ بناء القصيدة في النقد العربي القديم :٢٩٨.

ومرورا بابن رشيق القيرواني الذي نظر الى موضوع وحدة القصيدة برؤية تخالف الحاتمي، فهو لا يرى ان الشعر يجب ان يكون بالضرورة مبنيا بعضه الى بعض بل يستحسن ان يكون كل بيت قائما بنفسه لا يحتاج الى بيت قبله او بعده ليكمل معناه، فبناء اللفظ على اللفظ في سياق البيت اجود من بناء البيت على البيت، وقصد بذلك الرد على الحاتمي ونظرته الى قضية وحدة القصيدة.

في حين نظر عبد القاهر الجرجاني الى مفهوم وحدة القصيدة انطلاقا من نظرية النظم، فيرى انها تتحقق بحدود الجملة الواحدة بين كلماتها او الجملتين ، والنظم عنده: ليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب بعض.

واما المرزوقي في نظرية العمود فقد خصص احد اركانها لمفهوم وحدة القصيدة وهو (التحام اجزاء النظم والتئامها وشدة اقتضائهما للقافية على تخير من لذيذ الوزن)ليشرك عناصر بناء القصيدة (لغتها ومعانيها ووزنها وقافيتها)كلها في تحقيق وحدتها .

حتى نصل الى حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) الذي نثر آرائه في كتابه منهاج البلغاء في القسم الثالث من كتابه – منهج الابانة عن قواعد الصناعة النظمية التي تقوم بها مباني النظم- ويوردها في المواضع ادناه:

١- ا"لقوة على تصور مقاصد الشعر والمقاصد الواقعة فيها والمعاني في تلك المقاصد ليتصل بها الى اختيار ما يجب لها من القوافي ولبناء فصول القصائد على ما يجب"
٢- "القوة على تصور صورة القصيدة تكون بها احسن ما يمكن وكيف يكون انشاؤها افضل من وجهة وضع بعض المعاني والابيات والفصول من بعض بالنظر الى صدر القصيدة ومنعطفها من نسيب الى مدح"
٣- " القوة على التخيل في تسيير تلك العبارات متزنة وبناء مباديها على نهاياتها ونهاياتها على مباديها"
٤- "القوة على الالتفات من حيز الى حيز والخروج منه اليه والتوصل به اليه".
٥- "القوة على تحسين وصل بعض الفصول ببعض، والابيات بعضها ببعض والصاق بعض الكلام بعض على الوجوه التي لاتجد النفوس عنها نبوة"

والنقطة الاخيرة تجمع كل التفسيرات والآراء السابقة لمفهوم وحدة القصيدة عند النقاد السابقين، وحدة اجزائها عند الحاتمي ووحدة البيت الواحد عند ابن رشيق واشتراطات المرزوقي لأركان نظرية عمود الشعر التي تحقق وحدتها، لكن حازم يهتم بموضوع هيكل القصيدة اكثر من اهتمامه بوحدتها مستندا الى صورة القصيدة الجاهلية ومبناها وما فيها من نسيب يتخلص منه الشعراء الى المديح .

كما يوضح حاتم نظرته الى كلية القصيدة بالعبارات الاتية:" اعلم أن الأبيات بالنسبة إلى الشعر المنظوم نظائر الحروف المقطعة من الكلام المؤلف والفصول المؤلفة من الأبيات نظائر الكلام المؤلف من الحروف والقصائد المؤلفة من الفصول نظائر العبارات المؤلفة من الألفاظ فكما ان الحروف اذا حسنت حسنت الفصول المؤلفة منها اذا رتبت على ما يجب وضع بعضها من بعض، على ما ينبغي، .. كذلك يحسن نظم القصيدة من الفصول الحسان كما يحصا ائتلاف الكلام من الالفاظ الحسان اذا كان تأليفها منها على ما يجب، وكما ان الكلم لها اعتباران، اعتبار راجع الى مادتها وذاتها ، واعتبار بالنسبة الى المعنى الذي تدل عليه، كذلك الفصول تعتبر في انفسها وما يتعلق بهيآتها ووضعها، وتعتبر بحسب الجهات التي تضمنت الفصول الاوصاف المتعلقة بها" المنهاج: ٢٩٠.

ويضع اربعة قوانين تتعلق بالفصول هي:

- استجادة مواد الفصول وانتقاء جوهرها
- ترتيب الفصول والموالات بين بعضها وبعض
- ترتيب ما يقع في الفصول
- فيما يجب ان يقدم في الفصول وما يجب ان يؤخر فيها وتختت به"٢٩١

وتندرج تحت كل قانون اشتراطات عامة في المعاني والالفاظ والطول والقصر والاساليب ومراعاة حال المخاطب وغيرها من القضايا التي اختصر فيها المباحث النقدية البلاغية الطويلة التي نثرها سابقوه في كتبهم.

وهناك ثلاثة اعتبارات وضعها حازم لتحقيق وحدة القصيدة هي:

١- ان تأتلف الالفاظ في البيت الواحد مثل ائتلاف الحروف في الكلمة الواحدة.
٢- ان تكون ابيات الفصل غير متخاذلة النسج لا يتميز بعضها على بعض.
٣- ان تكون الفصول موصولة ببعضها، وهو امر يرى انه يتحقق بأربعة انواع:
- متصل العبارة بالغرض
- متصل العبارة دون الغرض
- متصل الغرض دون العبارة
- منفصل الغرض والعبارة

ويرى ان النوع الثالث اقل اهمية من الاول والثاني وان الضرب الرابع مشتت غير منتظم، وبذلك فان نظرته الى وحدة القصيدة قد تميزت بكونه ينظر الى مجمل القصيدة على عكس من سبقه من النقاد الذين تكلموا عن البيت والبيتين واساليب الربط بين مقاطع القصيدة الواحدة.(قضايا النقد القديم/٧٨)

ومن استقراء هذا الكلام تتضح اهمية نظرة حازم وشموليتها، فهو اولا عد الشعر الجاهلي معيارا تقاس به قضية الوحدة كونه نص طويل متعدد الموضوعات على الاغلب، كما انه فهم ان قضية الوحدة لا تتحقق بنظم داخلي للكلمات ولا عبارات او ابيات متلاحمة وحسب بل فصول تأتلف وتتجانس لغة ومعني في اطار الموضوع الذي تتناوله،

ويؤكد د. يوسف بكار ان حازم اول ناقد عربي قديم فهم الوحدة في القصيدة ولم يشغل نفسه ببحثها في جملة ولا بيت، واول ناقد يؤكد وجودها في التحام اجزاء القصيدة كاملة وهم اعم واشمل حتى من نظرية عمود الشعر ، ويرجع ذلك الى تأثره بمنهج ارسطو في فهمه لها.: بناء القصيدة في النقد العربي القديم: ٣١٠

ونرى ان حازم وان تأثر فعلا بمنهج ارسطو كما يصرح بذلك الا انه قام بتكييف الاحكام على القصيدة العربية التي تختلف عن اشعار الاغريق من جهة ، كما استفاد من مجمل الجهود النقدية التي سبقته على يد النقاد العرب وكان عمله خلاصة جيدة لما وصل اليه النقد العربي القديم في موضوع الوحدة وموضوعات اخرى كثيرة.

المصادر:

- حلية المحاضرة في صناعة الشعر/ الحاتمي
- منهاج البلغاء وسراج الادباء: حازم القرطاجني
- طبقات الشعراء- ابن سلام الجمحي
- نقد الشعر قدامة بن جعفر
- العمدة لابن رشيق القيرواني
- بناء القصيدة في النقد العربي القديم- د. يوسف حسين بكار
- قضايا النقد القديم- محمد صايل حمدان
- دراسات في الادب والنقد- د. احمد مطلوب